البيضاء

للدكتور يوسف إدريس

١

صحيح أن الأدب ليس تاريخًا كما أنه ليس علم النفس ولا علم الاجتماع بل هو بناء فنّى أساسه اللغة ، لكنه ليس بناءً مفرغًا بل يستوحى موضوعاته من كلّ هذه العلوم الإنسانية مجتمعة . لهذا فكما يختلف الأدب من قصة إلى مسرح إلى شعر كذلك يختلف فى النوع الواحد من حيث مادته التى يستوحيها .

وقد استوحى أدبنا العربى المعاصر – فيما استوحى – تاريخنا المعاصر بحيث يمكن للمؤرخ أن يعتبره من بين وثائقه التى يرجع إليها كما يرجع إلى الصحف ومجموعة القوانين والقرارات الصادرة فى فترة معينة .

ورواية البيضاء للدكتور يوسف إدريس تذكرنا على الفور بمجموعة الروايات التى استوحت ما كان يضطرم به مجتمعنا المصرى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى قيام ثورة ١٩٥٢ ، والتى تناولت نشاط الحركات السرية التى كان يقوم بها الشباب فى تلك الفترة مما يجعل فى الإمكان ضمها إلى رواية العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح للدكتور لويس عوض التى نشرها عام ١٩٦٦ وإن ذكر أنه قد كتبها قبل ذلك لحوالى عشرين عامًا . ورواية « فى بيتنا رجل » لإحسان عبد القدوس التى نشرها عام ١٩٥٧ . . إلخ .

ورواية البيضاء وإن نُشرت فى كتاب عام ١٩٧٠ إلا أنه سبق نشر بعض أجزائها فعلاً عام ١٩٥٩ وإن كتب المولف فى نهايتها أنه كان قد أتم كتابتها فى صيف ١٩٥٥ أى نفس التاريخ الذى يُرَجِّح أنه كتب فيه « قصة حب » .

وهذا يفسر لنا التشابه الظاهرى بين الروايتين من ناحية ، ويوضح أنهما تقدّمان جانبين متعارضين لدى مؤلفهما من ناحية أخرى .

فبطل القصة الدكتور يحيى كان يسكن فى حيٍّ شعبىّ وهو حىّ بولاق حيث يحسّ أنه يحيا « وسط شعبنا بكل عيوبه ومزاياه إلى درجة أننى كنت أخجل أحيانًا من نفسى لهذا الكره الذى أكنّه لأصحاب الدكاكين والقهوة والمطعم وهم يحيوننى »

فالجالسون على الدكاكين والقهاوى لا عمل لهم إلا الحملقة فى المارين وتفحصهم وإحصاء حركاتهم وسكناتهم ، وهناك بالبيت مستوصف حافل بالزبائن . فإذا جرؤت وفتحت نافذة دخلت زوبعة . ثم هناك رائحة الكبدة المتصاعدة من مطعم متخصص فى قليها أسفل الشقة التى يسكنها طبيبنا . وأفظع ما فى الأمر أن المطعم نفسه كانت له يافطة من النيون الأحمر والأخضر والأصفر تضىء وتنطفئ آليًّا طوال الليل ، وللنيون أزيز مزعج فضلاً عن الضجّة الهائلة وأصوات الميكروفونات .

تلك نظرة بطلنا إلى مسكنه فى ذلك الحى الشعبى ، كذلك كانت نظرته إلى عمله . فعمله كان عملية تعذيب مؤلمة عليه أن يتحملها يوميًّا . كان عمله الكشف على العمال والمرضى بورش السكة الحديدية ومنحهم الإجازات . ولكن تسعة وتسعين فى المائة من العمال الذين يكشف عليهم كانوا أصحاء . والإجازات التى لم يكن يمنحها كانت تؤخذ منذ أخذًا . وليته عامل أو عشرة أو مائة . . وهو نفسه يقارن بين مايراه من العمال الآن وبعد احتكاكه بهم فى الحياة العملية وبين فكرته عنهم حين عُين فى هذه الوظيفة وكان لايزال حديث التخرج ، ولا تزال لجنة الطلبة والعمال التى كانت تقود الكفاح المسلح ماثلة فى ذهنه ، لهذا لم يكن يتردّد فى منحهم ما يريدون من إجازات ، معتقدًا أنه بذلك العمل البطولى قد استولى على قلوبهم . لكن أبدًا ، كلّ ما حدث أنهم كفّوا عن رجواتهم وملقهم ، وأصبح الواحد منهم يطالب بالإجازة دون أن يكلّف نفسه عناء الشكوى من المرض . فإذا لم يمنحها له كشّر وأقسم ألاّ يغادر مكانه إلا بالإجازة .

ولقد انعكس هذا الأسلوب الفكرى على تصرفات يحيى . فقد وجد نفسه ذات يوم – نعم هكذا وجد نفسه – يعبر كوبرى أبو العلا ويجوب الشوارع الواقعة فى حى الزمالك بحثًا عن شقة أو حجرة فى ذلك الحى الهادئ المهيب يصلح مسكنًا له . ويبرر موقفه فيقول إنه لم يختر الزمالك لأسباب تتعلق بالأرستقراطية ورغبة السكن فى حى راق بل لرغبته فى الهدوء (ص ١٠٠) ، ومع ذلك فعندما تجوّل صديقه شوقى فى الشقة الجديدة وألقى عليها نظرة قال

وهو يهز رأسه : الزمالك ؟ ففهم قصده وقال : أيوه . . بداية التحوّل إلى الأرستقراطية (١١٧) .

وحين أراد يحيي أن يفضي إلى صديقه بسر حبّه لم يقع اختياره إلاّ على الدكتور أحمد سيف النصر. وتاريخ علاقته بسيف النصر يدل على ما وقع له من تحوّلات فكرية كما دلتنا عليه تصرفاته فيما يتعلق بمسكنه وعمله . فحين كان حديث التخرج كان يعتبر سيف النصر أحد الفارين من الحركة الوطنية ، وكان ينظر إليه باحتقار . بينما سيف النصر ينظر إليه بإشفاق كبير على اعتبار أنه لايزال من المتحمسين الذين يحول حماسهم بينهم وبين أن يروا الحقيقة . غير أنه على مرّ الأيام بدأت علاقة أعمق تنشأ بينهما ، سيف النصر يكتب بعض مقالات للمجلة ، ويحيي يسلّم بكثير من آرائه وانتقاداته عن نشاط الجماعة (ص ١٦٤ – ١٦٥) .

لهذا كان من المنطق أن يتذكر يحيي حديث أحد أصدقائه حين سأله عما يدفعه إلى نشاطه السياسي معرضًا نفسه للسجن والتشريد وهو الشاب الذي يحتل مركزًا اجتماعيًّا يحسده عليه الآخرون . وكان من الطبيعي أن يتساءل هو بدوره عما يدفعه إلى التضحية (ص ١٧١) .

ولقد أعلن يحيي عن موقفه الفكري أثناء الظروف التي عرف فيها فتاته اليونانية سانتي . فقد عرفها واليأس قد وصل به إلى مرحلة كان يقرر فيها كل يوم أن يقطع صلته بالمجلة السياسية التي كان يحرر فيها وبالمجموعة كلها وأن يبدأ في البحث عن طريق آخر يكون مقتنعًا به وبصحته ومؤمنًا بفائدته .

ولخصّ لنا سرّ تمرّده على هذه الجماعة السياسية التي كان ينتمي إليها ، فقد اكتشف أنه لم يكن قبلاً يفكر أبدًا . كان يحيا كالسهم المطيع المندفع . لكنه وصل إلى مرحلة لم يعد يهضم فيها إقدامه على عمل ما لم يكن مؤمنًا بصحته . معنى هذا أن يفكر بنفسه لنفسه . وهم يريدون جنودًا وعساكر ينفذون فقط ما يفكرون هم فيه (ص ٧٦) .

وقد جاء احتكاكه بالحياة العملية – وكما قلنا – تدعيمًا لهذا التطور الفكري . فقد اصطدم بعمّال ورش السكة الحديدية لأنهم يصرّون على أن يمنحهم إجازات مرضية دون أن يكونوا مرضى ويعرضونه بذلك لمؤاخذة رؤسائه ، وهو الذي لم يسئ إلى أحدهم بل على العكس من ذلك كان على استعداد دائم لمساعدتهم ، ومع ذلك فعندما هتفوا بسقوطه ساءه أن يحس بانفصاله عنهم« ها أنا ذا في ساعة الجد أختار جانب الجهاز الذي أنتمي إليه وأدافع عنه بدفاعي عن نفسي ووظيفتي » (ص ٢٠٩) .

وحين خُيِّر يحيى بين صديقته سانتى أو زعيمه ، تنحّى عن زعيمه فى الحال . فقد خرج زعيمه البارودى من السجن أعمى لا بيت له ، فدعاه إلى شقته ليقيم فيها . لكنه اكتشف أن وجوده فى شقته يعطل عليه فرص لقائه بسانتى ، فدبر خطة لطرده : أرسل إلى والدته وأخته فى القرية خطابًا لتزوراه فى القاهرة وتريا المعرض . وعندما أتت الأسرة كان على البارودى أن يغادر الشقة . وكما طرد زعيمه فقد طرد أسرته أيضًا فلم ينقض يومان حتى اضطرهما أن يعودا إلى قريتهما لتخلو له الشقة من جديد .

٢

على أن هذا كله لا يجب أن يخدعنا أو يحولنا عما اعتبره الجوهر الحقيقى للموضوع الروائى فى البيضاء وإن كان وثيق الصلة بهذا الموقف الفكرى ، ذلك هو علاقة البطل بالبطلة وما لها من دلالات . أما الأحداث السياسية فليست إلا خلفية لتلك العلاقة وامتدادًا لها بما يجسدها فى الزمان والمكان .

فى البدء كان اللقاء ، واللقاء كان فى مطعم من مطاعم القاهرة ، نحن إذن نتلقى الأحداث وانعكاساتها من وجهة نظره ، وهذا هو أوّل ما نلحظه من فرق بين « البيضاء » و « قصة حب » المكتوبة بضمير الغائب حيث المؤلف هو العليم بكل شىء . وكان هدف اللقاء أن تتعاون سانتى مع المجلة السياسية التى يحرر فيها يحيى إلى جانب عمله كطبيب بورش السكة الحديدية . وكان مع سانتى زميلة أخرى فرنسية هى لورا سيكون دورها الفنى فى الرواية هو دور الإطار الذى تبرز من خلاله شخصية سانتى .

وحين كان يحيى فى طريقه للقاء سانتى كان يقول لنفسه إنه ما من امرأة قابلت رجلاً وما من رجل قابل امرأة إلا وسأل كلٌّ منهما نفسه : هل يصلح للآخر . فهناك دائمًا عملية بحث دائبة عن الطرف الآخر فى تلك اللعبة الخطرة التى يسمونها الحب .

وفى اللقاء قرر يحيى أن سانتى له ، طال الزمن أو قصر ، شاءت الظروف أم لم تشأ . وليست قصتنا بعد ذلك إلاّ متابعة للمحاولات المستمرة من أجل تحقيق هذا القرار الذى لم يُقَدَّر له أن يتحقق أبدًا .

وقد أمكن للمحاولات أن تستمر لأن اللقاء الأوّل تلته لقاءات أخرى فى شقة يحيى بحجّة إعطاء سانتى دروسًا فى اللغة العربية ، وقد ظهرت أوّل العقبات حين اكتشف يحيى ذات ليلة

أن سانتى متزوجة وأنها تزوجت عن حب وعن مشاركة لزوجها فى مبادئه . ومن هذا الصراع بين القُرْب الشديد والبُعْد الشديد بين الطرفين تسلسلت أحداث قصتنا » « فالطريق دقيق جدًّا ، ذلك الطريق الذى يفصل بين الرجل والمرأة ، وكلٌّ منهما يسلكه باحتراس شديد » (ص ٢٥) .

غير أن حاجزًا أخطر وأعمق قد تكشّف ، يكاد يعادل ذلك الذى يقوم بين الإنسان وأخته ، ذلك هو حاجز الزمالة والعمل المشترك . (انظر صفحات ٣٤ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦) ومع أنه اعتمد على الزمن وعلى نموّ العلاقة والتأكد بشكل قاطع أنها على الأقل راضية ، إلاّ أن هذا الحاجز ظلّ قائمًا بينه وبين سانتى حتى فى اللحظات التى بدت له سانتى فيها مستسلمة .

ولعل السبب الدفين لهذا الحاجز النفسى هو علاقة البطل بأمه . فقد نشأ يخاف منها وتخيفه . ويعترف صراحةً أن هذا الوضع انتقل إلى علاقاته بكلّ من عرف من غيرها من النساء . يكره الضعيفة ويشمت فى القوية ، وبينه وبين الضعيفة والجنس كله صراع « لا أعرف متى ينتهى ولماذا أنا سائر فيه » (ص ٤٧) فهو حائر مشتت بين رغبته الشديدة فيهن وخوفه الطاغى منهن . وعدم اطمئنانه إلى أية علاقة قد تنشب بينه وبينهن . لهذا يعلن أن من شك فى أوّل علاقاته بالناس وأقربها له العذر لو تشكك فى أية علاقة تنشأ بينه وبين أى إنسان . فإذا كانت الظروف قد دفعته لأن يتساءل : أهذه أمى ؟ فمن باب أوْلى أن يتساءل : أهذا صديق ، أتلك حبيبتى ، أهذه زوجتى ؟ وقد يقضى حياته كلها يسأل ، ويمضى عمره دون أن يجد الجواب ، ولكن النتيجة أنه حتمًا سيظل وحيدًا .

فإذا استمعنا إلى قوله معترفًا : أنا كنت دائمًا أرهب النساء وأبعد عنهن كما أرهب أمى وأبعد عنها ، ولكنى كنت دائمًا واثقًا أنى لو اقتربت من إحداهن لأوقعتها فى التو واللحظة (ص ٨٧) أدركنا أن محاولة الحصول على سانتى كانت ذات وجه مزدوج : رغبة فى تحطيم العقدة التى كونتها أمه فى حياته ، ثم رغبة مضادة فى تحطيم التحطيم أى البقاء عند العلاقة النفسية المريضة بها .

ولا شك أن إصراره على الحصول على سانتى وهى الزوجة المحبّة لزوجها كان يعبّر عن هذه الرغبة المضادّة لأنه كان يحمل بذور فشله ، وهذا هو سر تشبثه بها .

وعندما اعترف لها فوجئ بها لا تهتز ولا تنفعل ، بل تجيبه فى هدوء أنها متزوجة وأنها

تعتبره صديقها العزيز لكنها لا تستطيع أن تحبّه وتحب زوجها فى وقت واحد .

وفى شقته الجديدة بالزمالك أصبح كل شىء أكثر تهيؤًا لاستقبالها . وحين أقبلت فى موعدها كما توقع قرر – برغم كلّ ما حدث – أن يخطو خطوةً جديدةً نحوها . فاندفع يضمها بشدّة ليجد مقاومتها تشتدّ وتعنف . ثم تغادر الشقة فورًا .

وهكذا بعد اللقاء اكتشف أنها متزوجة ، وبعد الاعتراف اكتشف أنها لا تبادله عاطفته ، وحين ضمّها إليه اكتشف أنها تقاومه مقاومةً جدّيةً .

لكن سانتى وإن لم تقترب فإنها أيضًا لم تبتعد . ففى اليوم التالى وفى نفس الموعد تقريبًا عادت سانتى . فأحس بنفسه تنزلق من أقصى اليأس إلى أقصى الأمل . ولم تعطه سانتى جديدًا لكنها لم تفقده أيضًا ما حسب أنه فقده أمس إلى الأبد . وهكذا أصبحت سانتى هى السهل الممتنع فى حياة يحيى .

ومع ذلك فإن يحيى لم يفكر لحظةً فى الزواج من سانتى . واقترابها منه فى الحقيقة والواقع كان لا يفعل شيئًا أكثر من أن يغدر بها فى خياله ويبعدها ويجعلها أبعد ما تكون منالا . ومعنى ذلك أن يحيى جعل سانتى تقوم بدور السراب فى حياته .

وهنا تعود لورا إلى الظهور . فالمجلة لديها مشروع لترجمة مقتطفات منها إلى اللغة الفرنسية . ولورا وإن كانت تجيد الفرنسية إلاّ أن لغتها العربية تحتاج إلى تقويم وتدعيم ، ويحيى هو المكلَّف بذلك . ولورا تختلف عن سانتى مسلكًا وشكلاً . فهى ضخمة ، فيها أنوثة وشهوة ، سهلة . وهكذا داوى يحيى نفسه لا بالتى كانت هى الداء بل بصورة أخرى شديدة الشبه بالتى كانت هى الداء (ص ١٣٦) . وفى ضوء هذه العلاقة الجديدة أدرك يحيى خطورة علاقته بسانتى فهو يحبها حبًّا ملأ عليه كلّ جوانب نفسه حتى وهو مع فتاة جميلةمثل لورا فى مكان مغلق خال (ص ١٤٦) . حتى ترى سانتى أنه ليس وقفا عليها (ص ١٤٣) .

وتأتى بعد اللقاء والاعتراف والعناق محاولة إثارة الغيرة . وقد استعان يحيى فى ذلك بلورا ، كلّ أمله أن يرى سانتى تغير ولو مرةً واحدةً . وقد بلور مشكلته قائلاً : أحسّ أنى أنا الذى أتحرك ناحيتها باستمرار ، وأنها واقفة مكانها لا تتزحزح ، وأملى أن تخطو خطوةً واحدةً فقط لأستطيع أنا أن أقف مكانى ثم ألتقط أنفاسى وألمّ شتات نفسى (ص١٤٤) .

لكن بطلنا سرعان ما يقيم فى داخله توازنًا للموقف الجديد الذى خلقه هو . فقد بدأ يغار بدوره من علاقة سانتى بصديق له يحبّه ويحترمه اسمه شوقى ، وهكذا فلئن خلق هو موقفًا لعلها

تغار عليه فقد خلق هو فى أعماقه موقفًا يجعله هو أيضًا يغار عليها ويصبح أكثر تشبثًا بها .

وتزوره سانتى مرةً أخرى ويحاول أن يقبلها مرةً أخرى وتقاومه مرةً أخرى وتسرع إلى مغادرة الشقة . لكنه فى هذه المرة أكثر اطمئنانًا . فهو من ناحيته لم يتمنّ كثيرًا أن تعود ، ومن ناحية أخرى اعتبر ما حدث « مجرد جولة فى تلك المعركة الرهيبة الدائرة بينى وبين نفسى ، وبينى وبين سانتى » (ص١٧٧) . وهذا نص هام لأنه يدل دلالةً قاطعة على وجود الحاجز الداخلى تمامًا كوجود الحاجز الخارجى . وقد استطاع يحيى أن يصل إلى صيغة واضحة محددة لعلاقته بسانتى حين أعلن قائلاً : ربما نحب أحيانًا لأننا نريد أن نمنع أنفسنا من أن نحب ، ويكون حبنا سلسلةً متصلةً من محاولاتنا لكى نمنع أنفسنا من أن نحب » (ص١٩٢) . ومعنى هذا أن يحيى يدور فى دائرة مفرغة قوامها التناقض العاطفى : يحبّ لأنه يريد أن يمنع نفسه من الحب !

ومع هذا فقد قرر أن يكتب لها مرةً ثانيةً شارحًا الموقف كله فى وضوح . فهى تراه يحترق ولا تكلف نفسها مشقة إيقاف هذا الاحتراق ، وهى لا تعارض فى أن يحدّثها عن الحب ، فإذا حاول مزاولة الحب والاقتراب منها تراجعت مذعورةً واتهمته بأنه بدائىّ وذئب . إنها لا تريد من حبّه إلاّ أن يداعب آذانها ويسعدها ، أما أن يمسّ هذا الحب شعرةً واحدةً منها فتلك هى الجريمة البشعة فى نظرها . (ص١٩٤) .

وحين زارته ورأت كلماته كان ردّ الفعل من جانبها هو البكاء الذى مهّد للحظة طالما انتظرها ، فهاهى ذى سانتى أمامه ساكنة مستسلمة كالعجينة يستطيع أن يفعل بها ما يشاء« مستسلمة وتطلب منى أن أدعها » (ص٢٢٠) ، لقد رقّ إذن ذلك الحاجز الخارجى وأصبح هشًّا يمكن إزالته بنفخة أو لمسة ، عندئذ انتصب الحاجز الداخلى صلبًا للحظة خاطفة « ألقيت نظرةً على نفسى ، على أعماقى ، فروّعت للنتيجة ، لم أجد لدى أية رغبة فى سانتى بل لم أستطع أن أفكر فيها ثانيةً واحدةً» (ص ٢٠٠) لم أتوقع أبدًا أن تستسلم وتصنع كما تصنع أى امرأة أخرى ، إلى درجة أنى أكاد أنهرها بنظراتى وأستنكر .. (ص ٢٢٣) كلمات وكأنما نسمعها من كامل رؤية لاظ بطل سراب نجيب محفوظ . وقد برر يحيى هذا بقوله إنها لم تقم بأى تصرف يدلّ على رغبتها فيه . فكيف يتحرك وهو ينتظر منها أن تتحرك أولاً حتى يستطيع أن يريدها ويرغب فيها .

وخرجت سانتى لتدخل لورا ، وكما بكت سانتى بين يديه ، وجدبنفسه يبكى فى حضور لورا وهى تحسب بكاءه ولهًا بها . وهكذا تبلور موقف الثلاثة ، هو يحب سانتى ، ولورا تحبّه ،

وهو لا يعرف ماذا يدور فى عقل سانتى ، هو يصارحها بحبّه وهى لا تقبل ولا ترفض ، وأصبحت كلمة الحب كلمةً معقّدة، كالكلمة حين نكتبها ونعيد الكتابة فوقها » (ص ٢٨١) .

والآن هو متأكد من مجيئها ، لكنه مجيء بحكم العادة (ص ٢٨٤) وأصبح يحسّ بالغربة فى حضورها . وأحيانًا باللامبالاة وأحيانًا بالرغبة فى مجرد الاحتفاظ بها وإمساكها عن أن تنزلق . فقد بدأ يحس أنها تنزلق بعيدًا عنه بطريقة لا يمكن إيقافها ، وهو واقف يشاهد هذا الانزلاق ولا يستطيع منعه .

وحين احتضنها بشدّة بكت وهى تقول : إنك أعزّ صديق ، لا شىء غير هذا لماذا أنت مصرّ على أن أحبّك ، لماذا ؟ (ص ١٨٧) .

كانت مشكلته الحقيقية أنه يريد أن يفعل المستحيل ولا يرضى بأقل من المستحيل – (ص ٢٩١) .

ولم يمنع سانتى من التردّد على شقته إلا قرار من مجلس تحرير المجلة بذلك ، ومع أنه اصطنع الدهشة الغاضبة إلاّ أنه أحسّ بالراحة كأن عبئًا قد انزاح عن كاهله ، وغيره هو الذى تولّى مهمة إراحته (ص ٢٩٧) . ومع ذلك فقد وصل إلى مرحلة اليأس الكامل من أن يُشفى من حبها فتصاعد متصوّفًا فى عبادتها وكأنها تجردت هى الأخرى ووصلت إلى معنى الله .

٣

وبمقارنة سريعة بين ما قدمه يوسف إدريس فى « البيضاء » وما سبق أن قدمه فى « قصة حب » نلاحظ أن المؤلف قدم لنا فى البيضاء معارضةً فكريةً لما قدمه فى « قصة حب » وبذلك قدم لنا نموذجين مختلفين لبطلين من أبطال عصرنا .

هناك أوّلاً أوجه التشابه الظاهرية بين العملين . فرغم أن فوزية – بطلة قصة حب – مدرسة مصرية وسانتى يونانية إلاّ أننا نجد أوجه شبه بينهما واضحة . فكل منهما لها نشاط سياسى . وكلتاهما تتميّز بدقّة الجسم وبياض اللون (قصة حب ، روز اليوسف ، ١٩٥٥ ، ص ١١٧ والبيضاء ص ١٠) . وقبضة فوزية قوية (ص ٥٣) وسانتى كذلك كانت تقبض على اليد بقوّة وحماس وليس فى تسليمها رقّة المرأة (ص ٣٢) وفوزية تزور حمزة فى شقته بحجة الدروس الخصوصية (ص ٦٦) وهذا هو نفس مسلك سانتى مع يحيى . وفوزية حين أرادت

أن تعتذر لحمزة عن تصرّف لها وتشرح موقفها كتبت له خطابا أعطته له ، وفى رواية البيضاء كان يحيى هو الذى يلجأ إلى طريقة الخطابات للتعبير عن علاقته المعقدة بسانتى ثم يقرأها أمامها . وفوزية تردّد لازمة حمزة : فاهمنى إزاى (ص ١٩٤) وسانتى تردّد لازمة يحيى : هل تعلم شيئًا (ص ٧٥) . هذا هو التشابه الظاهرى بين شخصيتى الفتاتين تماما كالتشابه الظاهرى بين حمزة ويحيى كاشتغال كل منهما بالسياسة . لكن الخلاف يبدأ فيما وراء الظواهر ، فى نفسية كل من حمزة ويحيى ، وأسلوب تفكيره وبالتالى فى انعكاس ذلك على علاقته بالطرف الآخر . فحمزة عانى ما عاناه يحيى ، لكن ذلك لمدّة يوم واحد ، حين اعترف بحبّه لفوزية فاستنكرت فوزية ذلك منه . غير أن فوزية عادت تشرح له – فى خطابها – ما اضطرمت به عواطفها بعد ذلك الاعتراف فى كلام أشبه ما يكون بإيضاح لما كان يمكن أن تكون عليه علاقتهما لولا هذا التحوّل فى موقفها فهى تقول : لسبب ما حين يحاول أحد الطرفين أن يعترف للآخر يمثل المعترف إليه دورًا سلبيًّا أو هو يأخذ الموقف المدافع عن نفسه ، ولسبب ما نحرم على أنفسنا أن ننال مانشتهى بكافّة الحيل والعقبات (ص ١٤٣) أما ماحدث فى قصة حب بعد هذا الخطاب فهو مالم يحدث أبدًا فى قصة البيضاء . فقد وقفت العلاقة فى البيضاء عند نقطة ما قبل هذا الخطاب ولم تتقدم أبدًا . ولقد بدا لحمزة أن يؤله فوزية ذات لحظة كما آلّه يحيى سانتى واضعًا بنفسه عقبةً نهائيةً بينه وبينها ، إلاّ أن يحيى ما لبث أن أدرك أنها جالسة أمامه لاضخامة فيها ولا ألوهية (ص ١١٨) وبالتالى فإنه ما لبث أن عاد فعاملها كبشر .

إن الفرق بين حمزة ويحيى هو الفرق بين من يحطم قيود الداخل والخارج ليحصل ، ومن يقف عاجزًا أمام هذه القيود فلا يحصل إلاّ على المعاناة . هو الفرق بين من يندفع ويجد حمايته فى الشعب كما اندفع حمزة مختفيًا عن أعين الذين يلاحقونه فى زحام الناس ، ومن يعانى من متاعبه ومشاكله مع عمّال ورش السكة الحديدية . هو الفرق بين الشباب الممتلئ حيويةً والأقل خبرةً والأكثر حماسًا ووضوحًا ، والعمر الأكثر تقدمًا (حتى ولو كان يحيى فى العشرينات مثل حمزة) والأقل حماسةً والأكثر مناقشةً وتأملا وفرديةً . هو الفرق بين من كان شاغله الأزمة الاجتماعية أوّلاً ، ومن كان شاغله أزمته الشخصية أوّلاً ، هو الفرق بين من ترك المؤلف يتحدث عنه – كما يتحدث عن غيره – بضمير الغائب ، ومن أبى إلاّ أن يتحدث عن نفسه بنفسه مستخدمًا ضمير المتكلم فلا نراه ولا نرى الآخرين إلاّ من خلال رؤيته .